(٢٧)

الحج

العدد (٨٣) ذي القعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م)

الإسلام دين توحيد خالص، دين لا يؤمن بالوساطة بين العبد وربه، ولا بمشهود محسوس يركز عليه الإنسان تفكيره، ويصرف إليه همته، ليتخيل به الإله الذي لا تدركه الأبصار، ويرتبط به في خياله ويتمسك بأذياله، فلا وسائط ولا مظاهر، ولا صور ولا أصنام، ولا هياكل ولا طبقة كهان ولا سدنة، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (**البقرة: ١٨٦**)، ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (**الزمر: ٢،٣**).

إذن فالإسلام دين يطلب تجردا في الخيال، وسموا في الفكر، ونقاء في الإرادة والنية، وإخلاصا في العمل والتطبيق وانقطاعا عن الغير، لا يتصور فوقه أكثر منه، ومستوى في الفكر والعقيدة، لم تبلغ الإنسانية ولا الأديان والفلسفات، والنظم الدينية أو العقلية إلى مثله أو قريب منه، وقد وصف الله نفسه بما لا مزيد عليه في الدقة والسمو، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (**الشورى: ١١**).

ولكن الفطرة البشرية هي الفطرة البشرية، فالإنسان ما زال- ولا يزال- باحثا عن شيء يراه بعينه، فيوجه إليه أشواقه، ويقضي به حنينه ويشبع به رغبته الملحة، في التعظيم والدنو.

وقد اختار الله أمورا ظاهرة محسوسة، اختصت به ونسبت إليه وتجلت عليها رحمته، وحفتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله، وارتبط بها وقائع

وحوادث، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه، ودينه وتوحيده، وحسن بلاء أنبيائه، وسماها «شعائر الله» التي جعل تعظيمها تعظيمه، والتفريط في جنبها تفريطا في جنبه، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن في نفوسهم، ورغبتهم الفطرية في الدنو والمشاهدة، بل حث على ذلك، ودعا إليه فقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ (**الحج: ٣٢**)، وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ (**الحج: ٣٠**).

ثم إن الإنسان ليس عقلا مجردا، ولا كائنا جامدا يخضع لقانون، أو إرادة قاسرة، ولا جهازا حديديا يتحرك ويسير تحت قانون معلوم، أو على خط مرسوم، إن الانسان عقل وقلب، وإيمان وعاطفة وطاعة وخضوع وهيام وولع وحب وحنان، وفي ذلك سر عظمته وشرفه وكرامته، وسر قوته وعبقريته وإبداعه، وسر تفانيه وتضحيته، وبذلك استطاع أن يتغلب على كل معضلة ومشكلة، وأن يصنع العجائب والخوارق، واستحق أن يحمل أمانة الله التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ووصل إلى ما لم يصل إليه ملك مقرب، ولا حيوان ولا نبات ولا جماد.

إن صلة هذا الإنسان بربه ليست صلة قانونية عقلية فحسب، يقوم بواجباته ويدفع ضرائبه، ويخضع أمامه، ويطيع أوامره وأحكامه، إنما هي صلة حب وعاطفة كذلك، صلة لا بد أن يرافقها ويقترن بها، ويتحكم فيها حنان وشوق، وهيام ولوعة، وتفان وتهالك، والدين لا يمنع من ذلك، بل يدعو إليه ويغذيه ويقويه، فتارة يقول القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (**البقرة: ١٦٥**) وتارة يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ

ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (**التوبة: ٢٤**) ويذكر أنبياءه ورسله وينوه بحبهم وحنانهم، ويحدث عن أشواقهم وتفانيهم في هذا الحب، فيقول عن يحيى عليه السلام: ﴿**وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا**﴾ (**مريم: ١٢-١٣**) ويحكي قصة خليله إبراهيم، كيف آثر حب الله وطاعته على حب ولده، وفلذة كبده، وكيف وضع السكين على حلقومه، وحاول ذبحه حتى شهد ربه بصدقه وحسن بلائه، وقال: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (**الصافات: ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦**) ولذلك قال في وصف إبراهيم:﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ (**هود: ٧٥**).

وذلك سر إطالة القرآن في ذكر صفات الله وأفعاله، وآلائه ونعمائه وإشادته بها والعودة إليها مرة بعد مرة، فإن الصفات هي التي تثير الحب وتبعث الحنان، وتوجد الأشواق، وذلك سر تفصيل القرآن الذي يعبر عنه بعض علماء الكلام وأئمة الإسلام، «بالنفي المجمل والإثبات المفصل» فإن الإثبات هو الذي ينبع منه الحب، ويفيض منه الحنان، وتنبعث به الأشواق، وتتغذى به العاطفة، فإذا كان النفي رائد العقل كان الإثبات رائد القلب، ولولا هذه الصفات العليا وأسماء الله الحسنى التي نطق بها القرآن ووردت بها السنة، وهام بها الهائمون، وتغنى بها العارفون وسبح بها المسبحون، وسبح في بحارها ونزل في أعماقها الغواصون، لكان هذا الدين جامدا، لا يملك على أتباعه قلبا، ولا يثير فيهم عاطفة، ولا يبعث فيهم حماسة، ولا يحدث في القلب رقة، ولا في الصلاة خشوعا، ولا في العين دموعا، ولا في الدعاء ابتهالا، ولا في الجهاد تفانيا، وكانت علاقة العبد بربه علاقة محدودة ميتة لا حياة فيها ولا روح، ولا مرونة ولا سعة، وكانت الحياة كلها حياة رتيبة، لا عاطفة فيها ولا أشواق، ولاحنان فيها ولا هيام، وإذن، أي فرق بين الحياة والموت، وبين الإنسان والجماد؟ لقد كان المسلم في حاجة إلى

غذاء للقلب، وإلى زاد للعاطفة، وإلى أن يقضي شوقه، ويروي غلته، مرة بعد مرة وعلى فترة بعد فترة، وكان في حاجة إلى أن تطفح كأسه، فما قيمة كأس تمتلئ ولا تطفح؟ وكان في حاجة إلى أن تفيض هذه الكأس، فما قيمة كأس تطفح ولا تفيض؟

لقد كان للمسلم أن يقضي هذا الشوق، وأن يبرز هذا الحنان، وأن تفيض كأسه في الصلوات التي يصليها كل يوم، فيسلي بها قلبه ويطفئ بها غلته، ويهدئ بها ثائرته، ويخفف بها حرارة شوقه، ووهج نفسه، ولكنها قطرات محدودة تتكون خشوعا، أو تسقط دموعا، إنها قطرات قد لا تفي بما يجيش في الصدر من حنان وولع، وهي قطرات قليلة في بعض الأحيان لا تسمن ولا تغني من جوع.

لقد كان المسلم في حاجة، بعد هذه الصلوات، التي يصليها كل يوم، وبعد شهر رمضان الذي يصومه كل عام، وبعد الزكاة التي يقوم بها إذا تم النصاب وحال الحول، إلى أن يشهد موسما هو ربيع الحب والحنان، وملتقى المحبين والمخلصين، ومشهد العشاق والهائمين.

وكان المسلم في حاجة إلى أن يثور على عقله الرزين الوقور، المقلد المطبق، وما لذة حياة لا ثورة فيها ولا تمرد؟ وكان في حاجة إلى أن يتخطى الدائرة المرسومة من عادات ومألوفات، وقوانين وضعية، وحضارة مصطنعة ومجتمع قاس، ويفك قيوده وأغلاله، وينتزع الزمام من يد عقله، الذي استبد به زمانا طويلا، ويعطيه لقلبه وعاطفته، فيتحكمان فيه ما شاءا، ويهيم على وجهه كما هام الهائمون، ويذهب في الحب كل مذهب كما فعل العشاق المتيمون، فلا حرية لمن ملكه المجتمع، وسيطرت عليه الحضارة، وتسلطت عليه آلهة التقاليد، ولا توحيد لمن أسرته العادات، والمألوفات والشهوات، ولا يعتبر مطيعا منقادا مسلما مستسلما من اعتمد دائما على عقله، لا ينشط لعمل، ولا يسرع لامتثال أمر حتى يزنه في ميزان عقله المخلوق، ويعرف

فوائده المادية المحسوسة. والحج بوضعه الدقيق الغامض، المنافي للمألوف المعروف لعباد العقل والمادة، وأسارى النظم والترتيبات، دعوة إلى الإيمان بالغيب، واتباع الأمر المجرد، وعزل العقل عن وظيفته لمدة محدودة، وفي مكان محدود، وصرف عن طلب الدليل والحكمة والمنطق والفلسفة في كل حين وأوان، وفي كل زمان ومكان.

والحج بمناسكه وأركانه وأعماله، كله تمرين وتمثيل للإطاعة المطلقة، وامتثال للأمر، وتلبية وإجابة للطلب، فالحاج يتقلب بين مكة ومنى، وعرفات والمزدلفة، ثم منى ومكة.. يقيم ويرحل، ويمكث وينتقل، ويخيم ويقلع، إنما هو طوع إشارة ورهين أمر، ليست له إرادة ولا حكم، وليس له اختيار ولا حرية، ينزل بمنى، فلا يلبث أن يؤمر بالانتقال إلى عرفات، من غير أن يقف بالمزدلفة، ويقف بعرفات، ويظل سحابة النهار مشتغلا بالدعاء والعبادة، وتحدثه نفسه بالمكث بعد الغروب، ليستجم ويستريح، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى المزدلفة، ويقضي حياته محافظا على الصلوات في وقتها، ويؤمر بترك صلاة المغرب في عرفة لأنه عبد لربه، ليس عبدا لصلاته وعاداته، فلا يصليها إلا بالمزدلفة، فيريد أن يطيلها، فلا يسمح له بذلك، ويؤمر بالانتقال إلى منى.

وهكذا كانت حياة إبراهيم وحياة الأنبياء، وحياة العشاق المؤمنين والمحبين والمتيمين، نزول وارتحال ومكث وانتقال، وعقد وحل، ونقض وإبرام، ووصل وهجر، ولا خضوع لعادة، ولا إجابة لشهوة ولا اندفاع للهوى.

وكان ينبغي أن يكون ذلك في مكان قد قام فيه أكبر المحبين وإمام المخلصين، وأشد الناس حبا لله، وأحبهم إلى الله في عصره، وأسرته الصغيرة، الطيبة المباركة، بأكبر دور في الحب والولاء، والإخلاص والوفاء، والإيثار والفداء، وقاموا بأروع رواية وأجملها في تاريخ الحب السامي والولاء الطاهر، والإخلاص المعجز، وجاء من بعدهم الأنبياء والمرسلون، والموحدون

المخلصون، والمحبون في كل عصر، فنسكوا مناسكهم وشهدوا مشاهدهم، واحتذوا حذوهم، وترسموا خطاهم، وحكوا هذه الرواية وأعادوها، فطافوا حول البيت، وسعوا بين الصفا والمروة، ووقفوا بعرفات، وباتوا في المزدلفة ورموا الجمرات ونسكوا في منى.

وكان في المكان والزمان، وفصول الرواية التي يعيدونها، والأعمال التي يقلدونها، ونسائم الحب التي ينشقونها، والجو الفائض بالإيمان والحنان الذي يعيشون فيه، وطبقات الأمة، التي يتصلون بها ويعاشرونها، وفي هذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الارض، وفي هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية والاستغفار، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة، وينبه النفوس الخامدة، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت، أو كادت تنطفئ، ويجلب رحمة الله.